التّواصُلُ الحِجّاجي في وصيةِ الإمام الصّادق (عليه السّلام) لِعنوان البَصري

The Argumentative Communication in the Will of Imam al-Sadiq (peace be upon him) for unwan Al-Basri.

م.د. إيمان كريم جبار الحريزي
جامعة الكوفة-كلية التربية للبنات
قسم اللغة العربيّة

Dr. Iman Karim Jabbar Al-Huraizi.
University of Kufa/ College of Education for Girls/
Department of Arabic Language..

كلمات مفتاحية : جعفر الصادق / الاقناع/ الآليات البلاغية/ القصدية / التواصل الحجاجي

ملخص البحث

موضوعُ (الفاصلة القرآنية وأثرها الدلالي في سورة الشمس) تلمست فيه بعضا من أسرار ذلك التعبير العجيب المُعْجِز من خلال دراسة التأثير الدلالي للـ(الفاصلة القرآنية) في هذه السورة، ممّا خلص إليه البحث هو ان الفاصلة في القرآن الكريم بشكل عام مراعية للمفردة والمعنى والنغم في آن، وهذا ما لا يتسنّى لغير القرآن أن يتمتّع به على خلاف سجع الكهان او السجع بشكل عام ، وهذا جانب من جوانب الاعجاز في القرآن الكريم

Abstract

The argument colors a strategic communication that aims th effect the other an persuade him, it is a communicative system that contains language data with external contextual cues.

From this point of view, this study sought to combine two modern theories that analyze texts to show the accuracy of weaving, and the splendor of beauty: (argument and communication), argument is human action aims to persuade depend on the weighted mental bases.

There is no doubt that the texts of Imam al-Sadiq (peace be upon him) have a high argumentative power. The receiving arguments in his will to Unwan AlBasry are arguments builds the living reality, because his value is in the addresser himself that we can consider it as an important argumentative introduction employed in a achieving several results, and from here the task of the will is demonstrative, while the task of citing the Qur'anic texts is illustrative, which is something that gives the recipient great pleasure and recognition of the hypotheses presented and the inference of the texts received.

نص الوصيّة

من وصية الإمام الصادق (عليه السلام) إلى عنوان البصري:

يا عبدَ الله ! لَيْسَ العِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ، إنَّمَا هُوَ نُورٌ يَقَعُ فِي قَلْبِ مَنْ يُرِيدُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنْ يَهْدِيَهُ؛ فَإنْ أَرَدْتَ العِلْمَ فَاطْلُبْ أَوَّلاً فِي نَفْسِكَ حَقِيقَةَ العُبُودِيَّةِ، وَاطْلُبِ العِلْمَ بِاسْتِعْمَالِهِ، وَاسْتَفْهِمِ اللهَ يُفْهِمْكَ!

قُلْتُ: يَا شَرِيفُ!

فَقَالَ: قُلْ: يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ!

قُلْتُ: يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ! مَا حَقِيقَةُ العُبُودِيَّةِ؟!

قَالَ: ثَلاَثَةُ أَشْيَاءَ:. أَنْ لاَ يَرَى العَبْدُ لِنَفْسِهِ فِيمَا خَوَّلَهُ اللهُ مِلْكاً، لأنَّ العَبِيدَ لاَ يَكُونُ لَهُمْ مِلْكٌ؛ يَرَوْنَ المَالَ مَالَ اللهِ يَضَعُونَهُ حَيْثُ أَمَرَهُمُ اللهُ بِهِ.

وَلاَ يُدَبِّرَ العَبْدُ لِنَفْسِهِ تَدْبِيراً وَجُمْلَةُ اشْتِغَالِهِ فِي مَا أَمَرَهُ تَعَالَى بِهِ وَنَهَاهُ عَنْهُ.

فَإذَا لَمْ يَرَ العَبْدُ لِنَفْسِهِ فِي مَا خَوَّلَهُ اللهُ تَعَالَى مِلْكاً، هَانَ عَلَيهِ الإنْفَاقُ فِي مَا أَمَرَهُ اللهُ تَعَالَى أَنْ يُنْفِقَ فِيهِ.وَإذَا فَوَّضَ العَبْدُ تَدْبِيرَ نَفْسِهِ عَلَى مُدَبِّرِهِ، هَانَ عَلَيهِ مَصَائِبُ الدُّنْيَا.وَإذَا اشْتَغَلَ العَبْدُ بِمَا أَمَرَهُ اللهُ تَعَالَى وَنَهَاهُ، لاَ يَتَفَرَّغُ مِنْهُمَا إلى المِرَاءِ وَالمُبَاهَاةِ مَعَ النَّاسِ فَإذَا أَكْرَمَ اللهُ العَبْدَ بِهَذِهِ الثَّلاَثَةِ هَانَ عَلَيهِ الدُّنْيَا، وَإبْلِيسُ، وَالخَلْقُ.

وَلاَ يَطْلُبُ الدُّنْيَا تَكَاثُراً وَتَفَاخُراً، وَلاَ يَطْلُبُ مَا عِنْدَ النَّاسِ عِزّاً وَعُلُوّاً، وَلاَ يَدَعُ أَيَّامَهُ بَاطِلاً.فَهَذَا أَوَّلُ دَرَجَةِ التُّقَوى؛ قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:

(تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُها لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلا فَساداً وَالْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ[1])

قُلْتُ: يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ! أَوْصِنِي!

قَالَ: أُوصِيكَ بِتِسْعَةِ أَشْيَاءَ، فَإنَّهَا وَصِيَّتِي لِمُرِيدِي الطَّرِيقِ إلى اللهِ تَعَالَى؛ وَاللهِ أَسْأَلُ أَنْ يُوَفِّقَكَ لاِسْتِعْمَالِهِ.

ثَلاَثَةٌ مِنْهَا فِي رِيَاضَةِ النَّفْسِ، وَثَلاَثَةٌ مِنْهَا فِي الحِلْمِ، وَثَلاَثَةٌ مِنْهَا فِي العِلْمِ. فَاحْفَظْهَا؛ وَإيَّاكَ وَالتَّهَاوُنَ بِهَا!

قَالَ عِنْوَانٌ: فَفَرَّغْتُ قَلْبِي لَهُ، فَقَالَ:

أَمَّا اللَّوَاتِي فِي الرِّيَاضَةِ فَإيَّاكَ أَنْ تَأْكُلَ مَا لاَ تَشْتَهِيهِ، فَإنَّهُ يُورِثُ الحَمَاقَةَ وَالبَلَه وَلاَ تَأْكُلْ إلَّا عِنْدَ الجُوعِ وَإذَا أَكَلْتَ فَكُلْ حَلاَلاً وَسَمِّ اللهَ، وَاذْكُرْ حَدِيثَ الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ: مَا مَلأَ آدَمِيٌّ وِعَاءً شَرّاً مِنْ بَطْنِهِ. فَإنْ كَانَ وَلاَ بُدَّ، فَثُلُثٌ لِطَعَامِهِ وَثُلُثٌ لِشَرَابِهِ وَثُلُثٌ لِنَفَسِهِ[2] .

وَأَمَّا اللَّوَاتِي فِي الحِلْمِ:فَمَنْ قَالَ لَكَ: إنْ قُلْتَ وَاحِدَةً سَمِعْتَ عَشْراً، فَقُلْ: إنْ قُلْتَ عَشْراً لَمْ تَسْمَعْ وَاحِدَةً.وَمَنْ شَتَمَكَ فَقُلْ لَهُ: إنْ كُنْتَ صَادِقاً فِي مَا تَقُولُ فَأَسْأَلُ اللهَ أَنْ يَغْفِرَ لِي؛ وَإنْ كُنْتَ كَاذِباً فِيمَا تَقُولُ فَاللهَ أَسْأَلُ أَنْ يَغْفِرَ لَكَ.

وَمَنْ وَعَدَكَ بِالخَنَا فَعِدْهُ بِالنَّصِيحَةِ وَالدُّعَاءِ.وَأَمَّا اللَّوَاتِي فِي العِلْمِ:

فَاسْأَلِ العُلَمَاءَ مَا جَهِلْتَ؛ وَإيَّاكَ أَنْ تَسْأَلَهُمْ تَعَنُّتاً وَتَجْرِبَةً.وَإيَّاكَ أَنْ تَعْمَلَ بِرَأْيِكَ شَيْئاً؛ وَخُذْ بِالإحْتِيَاطِ فِي جَمِيعِ مَا تَجِدُ إلَيْهِ سَبِيلاً.وَاهْرَبْ مِنَ الفُتْيَا هَرَبَكَ مِنَ الأسَدِ؛ وَلاَ تَجْعَلْ رَقَبَتَكَ لِلنَّاسِ جِسْراً!

قُمْ عَنِّي يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ! فَقَدْ نَصَحْتُ لَكَ، وَلاَ تُفْسِدْ عَلَيَّ وِرْدِي؛ فَإنِّي امرؤ ضَنِينٌ بِنَفْسِي. وَالسَّلاَمُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى»[3] .

المقدمة

الحمدُ لله الذي أوضح السبيل لمعالمِ الإسلام ، وجعل السُّنة دليلًا على الشرائع والأحكام ، والصلاة على رسوله الأمين وعلى عترته أعلام الدين ، الذين فيهم كرائم القرآن, وهم كنوز الرحمن ، إن نطقوا صدقوا ، وإن صمتوا لم يسبقوا .

وبعد:

فقد سعى هذا البحث للجمع بين نظريتين من النظريات الحديثة التي تحلّل النصوص لإظهار ما فيها من دقّة نسج وروعة جمال وهما (الحجاج والتواصل), فالحجاجُ فعلٌ إنساني غايته الإقناع اعتمادًا على أسس عقليّة موزونة.

أمّا علاقة الحجاج بالتواصل فتتجلّى هذه العلاقة أولا بوجود أطراف العملية التواصلية (مرسِل ,ومرسَل إليه ,ورسالة) ويشترط لنجاحها أن نجعل الطرف الآخر يشاطرنا الرأي ونحاول اقناعه بالرسالة التي نريد إيصالها إليه بغضّ النظر عمّا إذا كان المخاطَب فردًا أو جماعة.

وفي هذا الصدد يقول :(فيليب بروتون):((فنقل المعلومة على طول الوسيلة ليس له الطبيعة نفسها مع تشكيل رأي ونقله نحو المخاطَب ,لذلك لابدّ أن نفكّر في مخطّط التواصل حالة المحاجة)) [٤]

وبما أنّ الحجاج هو فن الاقناع فهو استراتيجية تواصلية الهدف منها التأثير في الآخر وإقناعه وهو نظام تواصلي تلتقي فيه معطيات اللغة مع المشيرات الخارجية للسّياق.

بناءً على ما تقدّم وانطلاقًا من مقولة:» إنّ كل تواصل يهدف إلى إقناع» آثرتُ أن يكون هذا البحث بعنوان: (التواصل الحجاجي في وصية الإمام الصادق عليه السلام لعنوان البصري[٥]) ولا يخفى ما في كلامه ,وخطبه,ووصاياه (عليه السلام) من مادة غنيّة فضلًا عن قابليتها للتحليل على وفق المعطيات والمناهج الحديثة,فنصوص الإمام الصادق تمتلك قوة حجّاجية عالية ؛فالحجج الواردة بوصية الإمام الصادق (عليه السلام) لعنوان البصري هي حجج مؤسسة لبنية الواقع المعيش؛لأنّ قيمة الإمام في عين السائل المخاطَب يمكن أن نعدّه مقدمة حجاجية مهمة توظّف في تحقيق نتائج عدة ,ومن هنا تكون مهمة الوصية برهانية في حين تكون مهمة الاستشهاد بالنصوص القرآنية توضيحية وهو أمر يبعث في نفس المتلقّي متعة كبيرة وتسليمًا بالفرضيات المقدمة والاستدلال بالنصوص الواردة.

وقد رسم الإمام الصادق(عليه السلام) مقدّمة للمتلقّي من شأنها أن تثبت قيمًا وترسّخها عنده مثال ذلك قوله: ((يا عبد الله ليس العلم بكثرة التعلم إنّما هو نورٌ يقع في قلب من يريد الله تبارك وتعالى أن يهديه فاطلب أولًا في نفسك حقيقة العبودية)) فهذه قيمة تحتلّ مرتبة سامقة في الحجاج أو في النّص الحجاجي استطاع من خلالها الإمام الصادق (عليه السلام) أنّ يثبّت مقدمة عند المتلقّي تجذب انتباهه وتأثيره، وهذا ما جعله يسأل.

وقد اقتضت خطة البحث أن يكون على مطالب عدّة ,متبوعة بخلاصة لأهمّ النتائج المستقاة منه ,تتجلّى تلك المطالب في الآتي:

أولًا:البرنامج الحجّاجي العام للوصية

ثانيًا: القصدية

ثالثًا:الأفعال الكلامية

رابعًا: الآليات البلاغية

خامسًا:التواصل الحجاجي في الوصية

أولًا:البرنامج الحجّاجي العام للوصية

وصية الإمام الصادق (عليه السلام) هي نصّ تلتقي فيه البنيات النصية الداخلية بالموازيات السياقية الدلالية ,فعالم النص الحجاجي عند الإمام في هذه الوصية هو ((الموازي الادراكي في ذهن مستعمل اللغة لهيأة المفاهيم المنشّطة فيما يتعلّق بالنص)) [٦] .

ويمتاز النص أيضًا بأنّه نص حواري والنصوص الحوارية الضبط فيها قضايا كاملة تنسب إليه قيم الصدق وأسباب الاعتقاد لِكون هذه القضايا حقائق الصلات فيها تركز على القيمة,الإفادة, العلم ,الإرادة, السَّبب وغيرها[٧] .

وعادة ما يقدّم النص الحجاجي إفادة تحظى بموالاة المخاطب ومن تلك الإفادات الآيات القرآنية ,فتبنى العملية الحجّاجية على النحو الآتي:

المقدمة----(ليس العلمُ بكثرة التّعلم إنّما هو نور يقع في قلب من يريد الله تعالى أن يهديه)

الدعوى---- سؤال العلماء والتواضع لهم

التبرير----(الحاجة دعت إلى ذلك)

التدعيم ----بالآية القرآنية والحديث النبوي الشريف

فما يلاحظ على مقدمة النّص أنّ هناك كسرًا لأفق التوقع عند المتلقّي بقوة الحجّة ألزمهُ الإمام الحجّة من نفسه بقوله:((ليس العلم بكثرة التعلّم إنّما هو نور يقع في قلب من يريد الله تبارك وتعالى أن يهديه اطلب أولا في نفسك حقيقة العبودية)) إذ أفاد القصر بـ(إنّما) إثبات ما ذكر بعدها ونفي لما سواه

والملاحظ عليه أنّ الحجّة التي أتت بعده أقوى من التي قبلها فما أدّاه العامل الحجاجي(إنّما) هو شحن وتحويل المضمون الخبري القائم ليؤدّي وظيفة تتناسب مع الاستراتيجية الحجاجية أو المقدمة القيمة[٨] التي قال بها الإمام في بداية النَّص: ((ليس العلم بكثره التعلّم. إنّما هو نور))يعني نورا قلبيا وليس نورا يرى بالعين أو نورا ظاهريا .

والتدعيم الوارد في النّص هو تدعيم بالقيمة, والقيمة هنا الغاية التي توجّه المتكلم لما يبتغيه سلوكه فيعرض المحتوى المقدم عرضًا يطابق فيه (المقال المقام) من أجل حجاج ناجح[٩] .

ثانيًا: القصدية

ننظر إلى القصدية في كلام الإمام فنعالجها من جهتين :قصدية المتكلم في عملية التواصل الحجاجي من خلال الوصول إلى إقناع المخاطب بالعرض المقدَّم هذه أولًا, ووصول المخاطب إلى درجة الاقتناع بتغيير موقف ما وتبنّي الموقف المطروح ثانيًا.

فالمتدبّر لنصّ الإمام يجد الاختيار بقصدية واعية واللافت للنظر أنّ الإمام نادى الشخص باسم (عبد الله) مايدلّ على أنّ العبودية أرقى مراتب التقرّب إلى الله سبحانه فشكّل أسلوب النداء مقدّمة حجاجية رائعة أخاطبك بدْءًا من أنّك عبدٌ لله وكي لا تنسى أنّك عبدٌ أمام عظمة المعبود الخالق.

ويتضح دليل الاقتناع في النص ووضوح المقاصد فيه, أنّ السائل طلب من الإمام أن يوصيه بعد أن عرف معنى العبودية ,وأوصاه الإمام (عليه السلام) بتسعة أشياء بعد أن عمل على إنماء قوة الانضمام عند السائل وتحريكه للفعل المرتقب ولهذا قال عنوان: ((ففرغتُ قلبي له)).

ومن الروابط الحجاجية التي تسهم في إيضاح

القصد في النص هي (الواو) و (الفاء) فهما من أهمّ الروابط الحجاجية؛ التي تقوي الحجج بعضها ببعض لتحقيق النتيجة المرادة ,إذ يعدّ الواو رابطًا حجاجيًا مدعمًا للحجج المتساوقة أو المتساندة وظيفته الجمع ,فجمع بين الوصايا عند الإمام مثل :((ولا تأكل الّا عند الجوع وسمّ الله و اذكر حديث رسول الله)) لو حذفنا الواو لأصبح القصد غير واضح .

والحال نفسها مع الفاء((فإن أردت العلم فاطلب أولًا فاطلب في نفسك حقيقة العبودية)) وقول الإمام :((فإذا لم ير العبد لنفسه فيما خوّله الله ملكًا)) وقوله: ((فإذا أكرمَ الله العبد بهذه الثلاثة))

((فاحفظها وإيّاك والتهاون بها)) .فحقّقت (الفاء) سببًا جميلًا للنّص فضلًا عن تقوية الحجج ووضوح القصدية في النص.

ونجد فاعلية التكرار في النص أيضًا و التكرار ركنٌ من أركان القصدية وأهمّ ركيزة من ركائزها

وقد شكّل التكرار جانبًا مهمًا في رفد الحجج الواردة في النص مثل قوله (عليه السلام):

((هان عليه الانفاق)) و((هانت عليه مصائب الدنيا)) و((هانت عليه الدنيا وابليس والخلق)) وقوله: ((ولايطلب الدنيا تكاثرًا ولايطلب ماعند الناس عزًا وعلوًا))((إيّاك أن تعمل برأيك شيئًا)) و(الله أسأل أن يغفر لك)) و((أسأل الله أن يغفر لي))

وهنا يبرز الأثر الحجاجي للتكرار إذ نراه رافدًا أساسيًا يرفد الحجج والبراهين المقدمة لفائدة الدعوى لما يحتويه من طاقة مضافة تؤثّر في المتلقّي ومن ثمّ تسهم في اقناعه وحمله على التصديق بمضمون الرسالة وغايتها المتوّخاة .

ثالثًا:الأفعال الكلامية

الأفعال الكلامية هي إحدى مكونات الحوار الأساسية[١٠] وقد أخذ مفهوم الأفعال الكلامية حيزًا كبيرًا ,من بنية النظرية التداولية, فكانت التداولية في نشأتها منطلقة من نظرية الأفعال الكلامية والتي تشكّل في الوقت الحاضر الإطار الذي تدور في مساره الدراسات التداولية على اختلافها ,واللغة العربية كغيرها من اللغات الطبيعية تشتمل على طائفة من الصيغ والأدوات التي يستعملها المتكلم للدلالة على القوة الانجازية التي يريد تضمينها كلامه كالتقرير, والاستفهام ,والتمنّي ,والإخبار, والنفي والاثبات ,والطلب ,والترجّي ,وغيرها[١١] .

ويعرّف الفعل الكلامي بأنّه كل ملفوظ ينهض على نظام شكلي دلالي إنجازي تأثيري وفضلًا عن ذلك يعدّ نشاطًا ماديًا نحوياً يتوسّل أفعالًا قولية لتحقيق أغراض انجازية كالطلب , والأمر ,والوعد ,والوعيد وغيرها, وغايات تأثيرية تتضمّن ردود فعل المتلقي مثل الرفض والقبول ومن ثمّ فهو فعل يطمح إلى أن يكون فعلًا تأثيريًا ويكون هذا التأثير في المخاطب اجتماعيًا أو مؤسساتيًا ومن ثمّ إنجاز شيء ما[١٢] .

وعليه؛ فإنّ المقاصد والمعاني والإفادات التي تُستفاد من صيغ التواصل العربي وألفاظ ومعاني الأساليب العربية المختلفة خبرية كانت أم انشائية ودلالات حروف المعاني إلى غير ذلك من الصيغ والأساليب العربية هي التي تمثّل نظرية الأفعال الكلامية في التراث العربي فهذه المعاني والمقاصد التواصلية أفعالٌ كلاميةٌ في منظورنا بكون أنّنا لا ننظر إليها على أنّها مجرد دلالات مضامين لغوية وإنّما هي فوق ذلك انجازات وأغراض تواصلية ترمي إلى

صنع مواقف فردية أو اجتماعية بالكلمات والتأثير. لحمل المخاطب على فعل أو تركه أو دعوته إلى ذلك أو تقرير حكم من الأحكام أو توكيد أو وعد المتكلم من المخاطب أو سؤاله عن شيء أو مجرد الافصاح عن حالة نفسية معيّنة وفق هذه النظرية لا تكون اللغة مجرد أداة تواصل أو رموز للتعبير وإنّما هي أداة لتغيير العالم وصنع أحداثه والتأثير فيه[١٣] .

وللأفعال الكلامية تقسيمات متعدّدة مثل :الايقاعيات والالتزاميات و الطلبيات والتعبيريات وغيرها[١٤] .

وحينما نعود إلى نصّ الإمام الصادق (عليه السلام) نجد أنّ أكثر الأنواع ورودًا هو الالتزاميات ,فالناظر في تلك السياقات يشعر بوجود فعل قانوني ملزم, فهذه افصاحات أو معبّرات تمثّل مضمون القول توظّف في مقام حجّاجي معيّن هو موضوع النص.

فأول فعل لغوي يرد فيه هو الأمر((اطلب العلم باستعماله)) وتوالت الأفعال بعده ((استفهم الله يفهمك)) و((اسأل العلماء ماجهلتَ)) و((خذ بالاحتياط في جميع أمورك و اهرب من الفتيا)) وكذلك النهي عن ترك أفعال بعينها ((لاتأكل إلّا عند الجوع))

((احفظها وإيّاك والتهاون بها)) فالتوجيهات كان الغرض منها حمل المخاطب في درجات مختلفة على أداء الوصايا والالتزام بها مدى الحياة؛ لأنّ الإمام (عليه السلام) قال:((ولايدع أيامه باطلًا)) وقال: ((فهذا أو درجة التقوى)).

ونجد في وصية الإمام الفعل الحجاجي هو الأصل والفعل اللغوي البسيط هو الفرع فيكون ((الحجاج حاكمًا على هذه الأفعال البسيطة لا محكوما بها)) [١٥] .

ونجد أيضًا الحجاج بالاستفهام وهو ينتمي إلى الحجاج بالفعل الكلامي (غير المباشر) المتضمن والسؤال بالاستفهام له أهمية بلاغية يرشح منها فعل الحجاج عند المتلقّي[١٦] ,فالسؤال يفترض موضوعًا ما ((يا أبا عبد الله اوصني)) وانطلاقًا منه يتوقع أنّ ثمة اتفاقا حول وجود هذا الموضوع (الوصية) وأنّ الإجابة على سؤال ما تعني تأكيد أهمية هذا الاتفاق الضمني وهو الوصية بتسعة أشياء لِمَن؟ لمريدي الطريق

إلى الله تعالى يعني هو إبطال دعوى وتبنّي دعوى أخرى نتلمسّها بقول المتلقي : ((ففرغت قلبي له)) هذا يعني قبول الحجة وحضور يقيني كامل قلبا وقالبا.

رابعًا: الآليات البلاغية

لعلّ أهمّ وسيلة اقناعية يحاول بها المخاطب استماله المتلقّي والزامه حجة التشبيه , ,والتشبيه أداة تبليغ نسعى من خلالها التأثير في المتلقّي ونعمل على تحقيق الغاية المرّجوة[١٧] .

والتشبيه الوارد في نص الإمام يتجلّى بالعبارة الآتية : ((ولا تجعل رقبتك للناس جسرًا))

هذا تشبيه حسّي شبّه شيئا محسوس الرقبة بشيء مادي (جسر) ووجه الشبه كلاهما محلّ عبور و تبرز هنا فاعلية التشبيه بالاقتناع ,فنراه تقنية اقناعية في الحجاج إذ حقّق تقنية اقناعية في إلزام المخاطب الحجة بأنّ الجسر يعبر عليه الناس بوصفه سكة مجرّدة للعبور وبها ختم النص.

يعني الاختيار هنا كان بقصدية تشبيه محسوس فالناس لاتؤمن إلّا بالمحسوس المرئي ,فتمّ اختيار

الجسر بقصدية عالية ,لجعل الباب مفتوحا أمام المتلقّي لايجاد وجه الشبه المناسب بين الرقبة والجسر فكما أنّ الرقبة حلقة وصل مهمة بين الرأس والجسد كذلك الجسر حلقة وصل مهمة بين مكانين أو طريقين- إن صحّ التعبير -وبه يكون السلّم الحجاجي أعلى درجاته الاقناعية وكون المشبّه به معروفًا مسلمًا به لديهم هذا ينير السبيل لتجلية الحقائق والاقتناع بها.

خامسًا: التواصل الحجاجي في الوصية

النّص بدأ بنتيجة ((ليس العلم بكثرة التّعلّم)) يهدف الإمام من خلالها إلى اقناع المخاطب بها ويقتضي الاستدلال أن يرفع ذكر النتيجة بذكر الادلة والحجج ولهذا أورد الإمام جملة من الحجج المباشرة وحججا أخرى مبثوثة في النص الهاشمي الشريف تخدم تلك النتيجة وتندرج في البرنامج الحجاجي العام ,فالعلاقة في النص قائمة بين نتيجة وحجج وهي علاقة تفسيرية وتبريرية في آنٍ واحد[١٨] .

نأتي إلى المقطع الأول ,فالتواصل الأول يظهر بقول السائل:((ما حقيقة العبودية؟)) أجاب الإمام ثلاثة أشياء الشيء الأول:

((لا يرى العبد لنفسه فيما خوّله الله ملكا؛ لأنّ العبيد لا يكون لهم ملك يرون المال مال الله, يضعونه حيث أمرهم الله به))

الشيء الثاني: ((و لا يدبّر العبد لنفسه تدبيرًا)),

الشيء الثالث : ((وجملة اشتغاله فيما أمره الله تعالى به ونهاه عنه)).

بدأ بالملكية الإلهية الملك لله تعالى ثم عدد صفات العبد الحقيقي(العبد المستخلف في أرض الله) :

- يرى المال مال الله
- ينفق المال في سبيل الله وفي شرعه.
- شغله الشاغل هو أوامر الله ونواهيه.

وساق الإمام (عليه السلام) الحجج الدالّة على ذلك ,فيظهر التواصل الحجاجي بقوله:

((هان عليه الانفاق)) ؛ لأنّه يرى أنّ الملك لله وهذه نتيجة مترتّبة على السياق الحجاجي الأول.

((هانت عليه مصائب الدنيا)) ؛لأنّه فوّض أمره إلى الله تعالى .

((لا يتفرّغ للمراء والمباهاة مع الناس)) ؛ لأنّ جملة اشتغاله بأوامر الله ونواهيه.

ثم ظهرت النتيجة الأخرى التي أجملت ما فصّلَ الإمام (عليه السلام) بقوله:

((إذا أكرمَ الله العبد بهذه الصّفات الثلاث)). أي: حتى يكون عبدًا حقيقيًا لله تبارك وتعالى ((هانت عليه الدنيا وابليس والخلق)).

فهذا اجمال ما فصّله المقطع السابق.

وهنا يظهر نوعان من التكريم الأول: هو تكريم الله للإنسان بوصفه خليفة الله على الأرض وهو أمر لا يسعى الإنسان لتحصيله, إنّما هو مختار من الله لهذه الخلافة ,وتكريم آخر يتدخّل الإنسان ويسعى جاهدًا لتحصيلهِ وهو أن يكون عبدًا حقيقيًا لله .

فإذا وصل تلك المرتبة من العبودية لله تعالى فإنّه ((لايدع أيامه باطلًا)) وعندما يصل تلك المرحلة فيكون في أول درجات التقوى التي أشار إليها الإمام بقوله :((فهذا أول درجة التقوى)) .

و نلحظ قمة التواصل بين السائل والإمام عندما طلب منه السائل أن يوصيه بقوله :((يا أبا عبد الله اوصني)) فهذه الجملة تدلّ على اقتناع تامّ بما قدّم الإمام من حجج لإيصال الرسالة إلى المتلقّي ولهذا رامَ منه الاستزادة .

وجاء الجواب أيضًا فيه وصايا أكثر ممّا وردَ في المقطع الأول وهذا يعطي إشارة أخرى فلو لم ير الإمام امارات الاقتناع الحقيقية من قبل السائل لما ضاعف عدد الوصايا بقوله : ((أوصيك بتسعة أشياء فإنّها وصيتي لمريدي الطريق إلى الله ثلاثة منها في رياضة النَّفس وثلاثة منها في الحُلم و ثلاثة منها في العلم))

وهنا يأتي تأخير وصاياه في العلم بقصدية عالية على الرّغم ممّا للعلم من أهمية كبيرة عند الإمام (عليه السلام) وهو الموضوع الأول الذي أوصى به بقوله : ((اطلب العلم باستعماله))

ونعلّل لذلك؛ بأنّ الإمام أراد أن تكون البداية مع تهذيب النفس بكبح شهواتها وإفراطها في الأكل ,وتعليمها الحِلم وصفة كظم الغيظ و حتى تكون من بعد ذلك مستعدة استعدادًا كاملًا لطلب العلم ,والتواضع للعلماء ,وسنقف على الدروس المستفادة من هذا المقطع إن شاء الله.

نأتي إلى قوله (عليه السلام) :((والله اسأل أن يوفقك))

تقديم المفعول به هنا جاء لبيان أهمية الرسالة التي توجب الدعاء لهذا العبد بالتوفيق الإلهي ؛لأنّه مسبقًا ((فوّض تدبير أمره إلى الله)).

وبعد أن أكرمه الله بأن يكون عبدًا حقيقيًا زاهدًا في الدنيا وملذاتها وهنا بلغ التواصل الحجاجي في هذه الوصيّة قمة الهرم بهذا الدعاء الصادر عن الإمام لهذا العبد ولمريدي الطريق إلى الله كما وصفهم (عليه السلام) فذلك تقديم رائع وتلك التفاتة تستحقّ الوقوف عليها في هذا الجزء من النّص.

الذي نلمح فيه دروسًا أخلاقية في تهذيب النفس عن طريق الجمع بين أساليب متعدّدة أسلوب التحذير بقوله:((إيّاك أن تأكل ما لا تشتهيه فإنّه يورث الحماقة والبله)) وأسلوب النهي: ((ولا تأكل إلّا عند الجوع)) وأسلوب الشرط: ((وإذا أكلتَ فكُلْ حلالًا وسمِّ الله واذكر حديثَ رسول الله)) فهذه العبارات حملت دروسًا قمة في الإيجاز في موضوع النهي عن الإسراف في الطعام,والأكل الحلال,و تعلّم كيفية آداب الطعام .

ويواصل التواصل الحجاجي مسيرته في تهذيب النفس الإنسانية فيظهر درس آخر قدّم له الإمام الحجج الرائعة بقوله : ((وأمّا اللواتي في الحلم فمَن قالَ لك إنْ قلتَ واحدةً سمعتَ عشرًا.

فقل لهُ إن قلتَ عشرًا لم تسمع واحدة, ومن شتمك فقُل له إن كنت صادقًا فيما تقول اسأل الله أن يغفر لي وإن كنت كاذبًا فيما تقول الله اسأل أن يغفر لك, ومن وعدك بالخنا فعدهُ بالنصيحة والدعاء)).

فقوله : ((إن قلتَ واحدة)) هنا ايجاز بحذف المفعول به وهو(كلمة)والمقصود كلمة واحدة.

فالدرس المستفاد من هذا الجزء هو كظم الغيظ ,ومقابلة الاساءة بالنصح والدعاء بالغفران والملاحظ أنّ الدعاء بالغفران وارد في موضعين مختلفين لكن النتيجة واحدة دعاء بالغفران لطرفين نقيضين (الصادق والكاذب) .

فاختياره الصفات المتعارضة ينهض بدور حجاجي مهمّ؛ لانّ هذه الصفات تجلو وجهة نظرنا و موقفنا من الموضوع[١٩]

فالمقصد الحجاجي من اطلاق الصفة ليس وضع الموصوف في حجرة من حجرات النص وليس الكشف عن موقفنا منه فحسب، إنّما تحديد نوع

الموقف الذي ينبغي أن يحكم به عليه. ومايلفت النظر أنّه قدّم المفعول به في الدعاء الثاني لبيان أهمية الدعاء في مثل هذه الحال حال إساءة الطرف الآخر مع كذب دعواه وهنا يظهر قمة التأدّب في التعامل مع المسيء أو من أساء إلينا ولهذا جاء التذييل في هذا الجزء ((فمن وعدك بالخنا فعده بالنصيحة والدعاء)) المقصود أنّه من بلغك منه ((أفحش الكلام)) [٢٠] فردّه إليه بأفضل النصح والدعاء بالغفران.

فالصفة عند الإمام لم يقتصر توظيفها معجميًا أو تأويليًا.

بل رام من خلالها النتائج التي يريد حصولها كانت نتيجة صدق الدعوى دعاء بالغفران ونتيجة كذب الدعوى دعاء بالغفران النتيجة واحدة والأطراف متناقضة .

نأتي إلى الجزء الأخير وبه ختام كالمفتتح وهو موضوع العلم ((وأمّا اللواتي في العلم فاسأل العلماء ما جهلتَ وإيّاك أن تسألهم تعنتًا وتجربةً, وإياك أن تعمل برأيكَ شيئًا وخذ بالاحتياط في جميع ما تجد إليه سبيلا ,واهرب من الفتيا هربك من الأسد ولا تجعل رقبتك للناس جسرًا)).

فنرى سؤال العلماء مصحوبًا بالتأدّب والتواضع إلى العالِم وتحذير من السؤال الذي يتصف باختبار العالم لتأكد من علميتهِ أو التكبّر عليه , وتحذير آخر من الافتاء بما لم يحط به الإنسان خبرًا ,وهنا يتضح جليًا ما ذكرنا بأنّ الحجج التي قدمها الإمام هي حجج مؤسسة لبنية الواقع المعيش, فكثرة المُفتين بغير علمٍ في زمانه جعلته يوصي السائل وينهاه عن الافتاء, ويهرب منه هروبه من الأسد , وبعد ذلك كله يوصيه بأن لا يجعل رقبته للناس جسرًا يعبرون عليه لتحقيق أهوائهم.

واختتم الوصية بأمره السائل بالقيام عنه لإتمام النصح إليه ((فإنّي امرؤ ضنين بنفسي والسلام على من اتبع الهدى)) وأنّه (عليه السلام) لم يبخل بنصحه فما هو ببخيل إلّا على نفسهِ, والسلام على مَن اتبع دين الله بالتزامه بما أوصى به (عليه السلام) فهذه العبارة هي حصيلة ما مضى من النصح والوصايا التي تجعل العبد عبدًا حقيقيًا لله , ملتزمًا بتلك الوصايا التي جُعلت مفتاحًا لمريدي الطريق إلى الله.

الخاتمة

١-لقد كانت الغاية من هذا البحث إظهار بعض جوانب الحجاج وبيان أهمية التحليل الحجاجي لنصوص أهل البيت (عليهم السلام) , وهي نصوص تمتاز بانفتاحها وقابليتها لقراءات متعدّدة, وقد وقع الاختيار على وصية من وصايا الإمام الصادق (عليه السلام).

٢- نص الوصية هو من النصوص الحوارية ويغلب عليه الوعظ ,والنصح ,والتوجيه ,والتحذير من أمور بعينها حاول البحث أن يقف على جوانب مضيئة منها.

٣-الموضوع الأساس في الوصية هو طلب العلم والتواضع للعلم والعلماء.

٤-اظهار الجوانب الحجاجية يبرز لنا مظهرًا اساسيًا من مظاهر الانسجام المضموني للنص الهاشمي الشريف.

٥-هذه الدراسة هي جزء من مشروع لدراسة كلام أهل البيت (عليهم السلام) لا أدعي قصب السبق في هذا المجال ولكن آمل أن تكون هذه الدراسة فاتحة خير لمن أراد سبر أغوار هذا المجال (التواصل الحجاجي في كلام أهل البيت عليهم السلام) والله ولي التوفيق.

الهوامش

١- الآية/٨٣ من سورة القصص.

٢- كلام الإمام في تناص من قول الرسول صلّى الله عليه وآله وهذا نصّ الحديث ((مَا مَلَأَ آدَمِيٌّ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنِهِ، حَسْبُ ابْنِ آدَمَ أَكَلَاتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ، فَإِنْ كَانَ لَا مَحَالَةَ فَثُلُثٌ طَعَامُهُ، وَثُلُثٌ شَرَابُهُ، وَثُلُثٌ لِنَفَسِهِ)) شعب الإيمان ؛ ابو بكر البيهقي , تحقيق الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد: ٤٤٧/٧.

٣- أشعة من بلاغة الإمام الصادق (عليه السلام)؛الشيخ عبد الرسول الواعظي:١٩-٢١.

٤- ينظر:التواصل والحجاج ؛عبد العزيز السراج,٢٧٣ نقلا عن
philppebertonlargumentationdans la ommunicatio ,edalarg casbah:,١٩٩٨.
p١٧

٥- (عنوان البصري:شيخ بصري قدِمَ المدينة المنورة لطلب العلم وكان شيخًا كبيرًا قد أتى عليه أربع وتسعون سنة)

٦- النص والخطاب والإجراء؛روبرت دي بو جراند ,ترجمة الدكتور تمام حسان :٢٠١.

٧- النص والخطاب والإجراء:٤١-٤٢.

٨- ينظر: اللغةُ والحجاج عمق النظرية ودقة الانجاز؛مسكين حسن:٢٧.

٩- ينظر:الَّنص الحجاجي العربي دراسة في وسائل الاقناع؛د.محمد العبد :٥٤.

١٠- ينظر:الخطاب والحجاج؛أبو بكر العزاوي :٥٤.

١١- ينظر:تداوليات الخطاب وضوابط الرواية والتلقي:(بحث منشور)؛محروس محمد ابراهيم علي مجلة علوم اللغة- مصر ,المجلد العاشر, العدد الأول ٢٠٠٧,، ص١٦٣.

١٢- ينظر:التداوليات وتحليل الخطاب؛د. جميل حداوي:٢٤-٢٥.

١٣- ينظر التداوليات وتحليل الخطاب:٢٥.

١٤- ينظر:افاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر؛محمود أحمد نخلة:٩٧-١١٨.

١٥- ينظر: الحجاج مفهومه ومجالاته دراسة نظرية وتطبيقية في البلاغة العربية؛ حافظ اسماعيلي علوي :١٩٧.

١٦- ينظر:الحجاج في البلاغة المعاصرة بحث في بلاغة النقد المعاصر؛محمد سالم محمد الامين الطلبة:٧٧.

١٧- ينظر:اليات الاقناع في الخطاب القرآني (سورة الشعراء) دراسة حجاجية؛هشام بلخير :١٢٧.

١٨- العلاقات مذكورة في كتاب الخطاب والحجاج:٢٢.

١٩- ينظر: الحجاج في القران الكريم من خلال أهم خصائصه الاسلوبية؛عبدالله صوله:٣١٦.

٢٠- كتاب العين ؛الخليل بن أحمد الفراهيدي :١١/٧, مادة (خنو).

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

١- أشعة من بلاغة الإمام الصادق (عليه السلام)؛الشيخ عبد الرسول الواعظي,ط١,مطبعة معراج-النجف الاشرف ١٩٤٣.

٢- افاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر ؛محمود أحمد نخلة,ط١,دار المعرفة الجامعية-مصر,٢٠٠٢م.

٣- اليات الاقناع في الخطاب القرآني (سورة الشعراء) دراسة حجاجية (رسالة ماجستير)؛هشام بلخير ؛اشراف محمد ابو عمامة جامعة لخضر باتنة الجزائر,٢٠١٢م.

٤- البلاغة فنونها وافنانها (علم المعاني)؛ فضل حسن عباس ط٤, دار الفرقان ,اربد- الاردن، ١٩٩٧م.

٥- تداوليات الخطاب وضوابط الرواية والتلقي:(بحث منشور)؛محروس محمد ابراهيم علي مجلة علوم اللغة- مصر ,المجلد العاشر, العدد الأول ٢٠٠٧,.

٦- التداوليات وتحليل الخطاب جميل حداوي,ط١,دار الفكر للنشر والتوزيع –بيروت,٢٠١٥م.

٧- التواصل والحجاج؛عبدالعزيز السراج,مقال ضمن كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة ؛حافظ اسماعيلي علوي ,ط١,عالم الكتب الحديث -اربد الاردن٢٠١٠م.

٨- الحجاج في البلاغة المعاصرة:بحث في بلاغة النقد المعاصر,محمد سالم محمد الامين الطلبة,ط١,دار الكتاب الجديدة المتحدة,لبنان,٢٠٠٨م.

٩- الحجاج في القران الكريم من خلال اهم خصائصه الاسلوبية, عبد الله صوله ,منشورات جامعة منوبة-تونس٢٠٠١م.

١٠- الحجاج والمغالطة من الحوار في العقل إلى العقل في الحوار؛ رشيد الراضي ,ط١,دار الكتاب الجديد المتحدة ,بيروت- لبنان ,٢٠١٠م.

١١- الحجاج مفهومه ومجالاته دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة ؛حافظ اسماعيلي علوي ,ط١,عالم الكتب الحديث -اربد الاردن٢٠١٠م.

١٢- الخطاب والحجاج : :ابوبكر العزاوي , ط١, عالم الحديث الكتب الحديث -اربد الاردن ٢٠١٠.

١٣- شعب الإيمان ؛ ابو بكر البيهقي , تحقيق الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد,ط١,مكتبة الرشد للنشر والتوزيع-الرياض ,٢٠٠٣م.

١٤- كتاب العين: أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري ت١٧٠ه,(د.ط) تح:مهدي المخزومي والسامرائي:دار ومكتبة الهلال,(د.ت).

١٥- اللغة والحجاج عمق النظرية و دقه الانجاز مسكين حسن ؛ الملحق الثقافي في جريدة الاتحاد الاشتراكي مارس ٢٠٠٧.

١٦- النص الحجاجي العربي دراسة في وسائل الاقناع ؛ محمد العبد ,مقال ضمن كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته تقديم حافظ اسماعيل,ط١,عام الكتب الحديث –الاردن ,٢٠١٠م.

١٧- النص والخطاب والإجراء؛روبرت دي بو جراند ,ترجمة الدكتور تمام حسان ,ط١,عالم الكتب-القاهرة ,١٩٩٨.